سنة صليبا الدويهي في زغرتا: الرب والتجريد وسعيد عقل

المدن – ثقافة
الجمعة 12/05/2017

في العام 1948 كان الفنّان الزغرتاوي العالمي، صليبا الدويهي، قد بدأ يتسلّق سلّم الشهرة. وكان قد أخذ جرعاته الدراسيّة الفنيّة الأولى على يد الفنّان حبيب سرور، وسافر الى باريس حيث درس الفنون الجميلة، وحاز إجازته في العام 1936 من أكاديمية فيلادلفيا للفنون الجميلة. ليعود، في العام التالي، الى لبنان حيث أمضى أربعة أعوام في رسم جداريّات كنيسة الديمان، قبل أن ينشئ أوّل محترف في شارع محمد الحوت، في بيروت. وأقام أوّل معرض له العام 1945، في أوتيل السان جورج برعاية الرئيس بشارة الخوري وشارك، من ثمّ، في معرض الفنّانين اللبنانين الذي أقيم في المتحف الوطني، العام 1947. وكان سيمضي وقت طويل قبل أن يجد أسلوبه التجريدي الخاص الذي قاده الى العالميّة بعد هجرته الى الولايات المتحدة الأميركيّة.

إلاّ أن الشاعر سعيد عقل لم تكن قريحته تحتاج لمشاهدة المزيد من أعمال الدويهي الدائرة، حتى ذلك الحين، في مداراتها الكلاسيكيّة والإنطباعيّة والكنسيّة المتمرّدة الى حد ما على أسلوب عصر النهضة، لتفيض بقصيدة يحيّي فيها إبداع الدويهي، وعبقريّته الفنيّة.

القصيدة نشرتها "الأفكار" التي كانت آنذاك جريدة يصدرها مؤسسها جورج إسحق الخوري. وهي كانت نشرتها في عددها الذي صدر يوم السبت 15 أيار 1948 (العدد 417– السنة العاشرة). وجاء فيها:

أنت واليخت وان تبحرا
في الرياح اللّينات الهبوب
في التعلاّت وخفق القلوب
في ذرى
من خضمّ ليلكي الغروب
كاد مُذ أومأت أن يزهرا...
أنت واليخت وان تغربا
آخر الأرض على العالمين
عن عزيف الجنّ والسامرين
عن ربى
طُرّزت بالورد والياسمين
نبتغي بعد السهى مطلبا
أنت واليخت وان تنزلا
في مساء لولئي الغيوم
شاطئاً نسياً بإحدى النجوم
حملا
منذ شارفناه همّ الهموم
آه ما أجمل ما اجملا

الشاطئ الذي تتحدّث عنه القصيدة ليس وحده المنسيّ، إنمّا القصيدة بأكملها منسيّة اليوم. وهي موجّهة من عَلَم لبناني شعريّ

الى عَلَم لبناني فنّي. ولا يجوز أن تبقى مطويّة أكثر.

يوم سافر لدراسة الفن

في العام 1932، ترك فيه صليبا الدويهي لبنان، لدراسة الفن في الخارج. وكانت هذه المرّة الأولى التي يُبارح فيها أمكنة اعتبرها مركز حياته، وعالمه، منذ الطفولة في إهدن، وزغرتا. فماذا كتبت الجريدة التي كانت تصدر في مسقط رأسه، وهي جريدة "صدى الشمال" لصاحبها المحامي فريد أنطون؟

تحت عنوان" الفنّان الدويهي" جاء في خبرها المنشور في عددها المزدوج 607 - 608
الذي كان بين أيدي قرّائها يوم الأحد في 2 تشرين الأوّل 1932 ما يلي:

"سافر الى فرنسا صديقنا المصوّر الفنّان السيد صليبا الدويهي للتعمّق في درس هذا الفن على أيدي أساطينه. وقد كانت الحكومة اللبنانية ساعدته بمبلغ من المال يوم كان على رأس وزارة المعارف الرصيف الحصيف الأستاذ جبران التويني. فنرجو له سفراً ميموناً، وعوداً أحمد، مقرونين بالنجاح والتوفيق". وأضافت: "والفضل للأستاذ سرور. وللفنّان الدويهي ميل غريزي الى هذا الفنّ. وقد درسه طيلة أربع سنوات على يد أشهر فنّان شرقي، وهو الأستاذ حبيب سرور الذي درّس الفنانين المرحوم جبران (خليل جبران)، وفرّوخ (أي مصطفى)، وفيليب موراني. ولقد مارس الدويهي هذا الفن بكدّ ونشاط، وله جملة رسوم تدلّ على مقدرته ومواهبه. أمّا مساعدة الحكومة فهي غير كافيةٍ، لاسيما وهو أوّل شاب من شمال لبنان، تشجّعه الحكومة إذ رأت فيه المقدرة والتقدّم بهذا الفن. فعسى أن تساعده الى النهاية".

ثم صدر ملّف، إثر وفاة صليبا، في مجلة " النقطة" (مجلّة الفنون -عدد-2- ربيع 1994) تعاون في إعداده كل من الراهب اللبناني الأب عبدو بدوي الذي قُدّر له التردّد على الدويهي في الولايات المتحدة الأميركيّة إبّان وجوده هو في روما لدراسة الفن، والباحث في مجال الفنون التشكيليّة سيزار نمّور الذي كان، هو الآخر، على علاقة بالدويهي خلال وجودهما في باريس، في المرحلة الأخيرة التي سبقت مفارقته الحياة في نيويورك، في غرّة العام 1994.

في النبذة التي احتواها الملّف إشارة الى أن الدويهي تعلّم في مشغل سرور رسم الجداريّات. أمّا سيزار نموّر فقد كان أكثر وضوحاً، ودقّة، بلفته الى كون صليبا تعلّم عند سرور رسم تماثيل الجفصين، والطبيعة الصامتة، وغسل عدّة الرسم. الاّ أن نمّور الذي كان الدويهي قد أودعه عدداً واسعاً من أعماله، على سبيل الأمانة، انفرد في الذهاب الى أن منحة الحكومة اللبنانيّة جاءت بمسعى من النائب والوزير الراحل حميد فرنجيّة. في حين لم يتضّمن خبر الـ"صدى" أية إشارة الى هذه النقطة. لكنّ مجلدها لذلك العام وضعنا أمام حقيقة لا تقبل الجدل، وهي أن صليبا الدويهي كان قد شرع، منذ وقت غير معلوم على وجه الدقّة، في الكتابة، والتعبير عن مشاعره، وأفكاره. بدليل نشر الصحيفة مقالين له: الأوّل قبل سفره (العدد 597- آب 1932) تحت عنوان "أيها النبع"، والتي لا بد أن يكون نبع مار سركيس هو المخاطب في سطوره، والثاني بعد أيّام من سفره (عدد 609 - 610، الأحد 9 تشرين الأوّل 1932) تحت عنوان " حيرتي وكياني" المعبّر عن حالته، وعن فلسفته في الحياة، في ذلك العهد.
ولطالما اعتبرت، على المستوى الشخصي، بوصفي أحد المهتمّين بسيرة ونتاج صليبا الدويهي، أن هذا الجانب، أي ميله للكتابة، والتعبير عن نفسه بالقلم، لم ينل حتى الآن ما يستحق من إهتمام. ربّما لطغيان شهرته كفنّان ذي شهرة عالميّة...

وصحيح أن مراسلاته التي لم ينقطع يوماً عن تحريرها من المهاجر، تُثبت، بالملموس، أن أسلوبه عاد فتطوّر كثيراً عمّا كان عليه، ليصبح أكثر غنىً، وتشبّعاً بالأفكار، ونفاذاً الى الروح. سوى أن ذلك ينطبق أيضاً على تحوّلات أسلوبه الفنّي، وتطوّر تقنيّته الخاصة في الرسم .
هذا ما استوقفني. وأظن أنه يستأهل أن يستوقف المهتمّين.

في أول عهده بباريس

لم أكتف بما كتبته جريدة " صدى الشمال" عن سفر الفنّان صليبا الدويهي لدراسة الفن في باريس. تابعت تقليب أعداد السنتين التاليتين، أي 1933 و 1934، يوم كان ذلك متاحاً لي.. ووقعت على خبر في الأولى، وعلى مقال لحليم سعاده، في

الثانية.

الخبر نشر في عددها 691 وفيه تزفّ "الصدى" لقرائها نبأ تفوّق الفنّان الإهدني على النحو الآتي: "بملء الغبطة والسرور تلقّينا نبأ من باريس يفيد أن صديقنا الرسّام الفنّان السيد صليبا الدويهي قد تفّوق على اربعماية طالب إمتحنتهم لجنة مؤلّفة من إثني عشر عضواً من المجمع الفنّي الفرنسوي. فبكل فخر نهنئ الصديق بتفوّقه ونرجو له مزيد التوفيق والنجاح".

والمعروف أن جريدة "صدى الشمال" كانت تعتمد في أخبار ما وراء البحار على شبكة من المراسلين المتطوّعين المدفوعين بغيرتهم على جريدة مسقطهم. ولا بد أن يكون زوّدها بهذا الخبر غير الموقّع بالذات، حليم سعاده، الذي كان، في ذلك الحين، يتابع دروسه الفلسفيّة واللاهوتيّة في مدرسة "سان سولبيس"، تمهيداً لسيامته كاهناً، في 24 أيار 1936، في كنيسة سيدة لبنان، في العاصمة الفرنسيّة. قبل أن يعود الى لبنان ويعيّناسقفاً العام 1944 ويقضي حوالى ثلاثين سنة كأمين سر للبطريركية المارونية، وينتقل الى رحمته تعالى في أول نيسان 1967.

أمّا المقال فهو مذيّل بتوقيع حليم سعاده الصريح، ودونما صفة كهنوتية، لأن سعاده لم يكن قد سيم كاهناً بعد. والجانب الإخباري فيه تخالطه الفرحة بالدويهي مجلّياً، وبنور الشرق متجلّياً، في عاصمة النور.

وأسلوبه التحّريري من النوع الذي كان شائعاً في صحافة تلك المرحلة، ويعكس الرصانة التي عرف بها صاحبه، واعتزازه بابن بلدته الذي توسّم فيه، مذ ذاك، خيراً، متوقّعاً له مستقبلاً مشرقاً. وهنا المقال المنشور في العدد 784 الذي نزل الى الأسواق يوم الخميس في 28 حزيران 1934:

الفنّان الدويهي الإهدني
في صالون (الفرنسيين) في باريس

يكرّم الناس رجال الفن ويقدّرون المنتوجات نفوسهم قدرها. وهذا صحيح. رغم إنعكاف فئة من الناس في العصر الحاضر على التلذّذ بكل ما هو مادي رغم جهاد بعض الكافرين الى قتل الروح. ويؤيّد ذلك ما نراه من تسابق الجماهير الى زيارة صالون الفنّانين الإفرنسيين في باريس لغاية سنة 1934. تختار لجنة خاصة من كبار الفنانيّنأبدع ما يعرض عليها من منتوجات السنة وترفض ما تراه غير كامل لأن الفنانين يسعون لعرض الساحر المدهش المبتدع. وذلك من تماثيل وصور وغيره من الفنون الجميلة. ومن يدخل هذا الصالون في هذه السنة يقف أمام صورة (المقصود لوحة) عليها سيماء الغرب وسحر الشرق، دقّة الأوروبيين ونور الشرقيّين. ومن تمعّن لعرف أن تلك اليد هي يد إهدنيّة للفنّان صليبا الدويهي. لا نريد أن نغدق عليه الثناء. فاللجنة زادته. ولا نشاء التفاخر يه الا لنشجّعه للمضيّ في المنهج الذي إتخذه في هذا الموضوع.

أَخَذَ عن اللبناني حبيب سرور الفنّان القدير دقّة الخطوط، ووشي النور، وعن الفنّان الفرنسي استاذه لورنس روعة التلوين، وحكمة (نسف) السحر وطلسه على القماش، ويأخذ عن نفسه سليقته الفنّية ما يجمع بين القديم والساحر، ويمّرد نفسه على جسده فيبدع في تعبير الفكر الروحاني إنعكاس الجمال الأزلي.

لم ينتج الدويهي هذا اللوح (أي اللوحة) فقط بل هناك ألواح أعجبت رجال الفن وأدهشت المتتلمذين لكبار الأساتذة. وقد شاهدنا بعض رفاقه يقصدونه ليوحي إليهم بسر، ويطلعهم على خفايا ما أودع من فنّ وعبقريّة. وإذا بقي الدويهي الفنّان مثابراً على نشاطه واجتهاده، وظلّمشمولاً بعين المنشّطين المشجّعين ليصل في قليل من الزمن الى عرش من الفنّ عالي المقام. فإلى الصديق الفنّان، والمواطن السائر الى دكّة النبوغ، تهانينا الخالصة، وأمانينا المخلصة، من أجل توفيقه، وإتمام رغائبه في الفنّ. وأملنا فيه انشاءالله".

باريس
حليم سعاده

هذه المعلومات تضيء على المراحل الأوّلية لمسرى الدويهي الفنّي، حين كان يحتاج الى الأضواء وهو على سفح جبل الشهرة العالمية الذي بلغ قمته، فيما بعد، بكل ما استلزم بلوغها من كدّ، وجهد، وعناء.

(*) مدوّنة كتبها الباحث محسن أ.يمينّفي صفحته الفايسبوكية بمناسبة احتفال بلدية زغرتا بسنة الفنان صليبا الدويهي

©جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2017